التهجي في كتاب اللصوصية

عندما قالوا له إن فتيان فتيان عبد اللطيف انكفأ على يد السيد النحال فقبلها، قال فريد هنيدى لمن حوله:

ـ «هناك بعض الحشرات الغبية تنقض على أوانى السم فتموت فيها غرقًا...»

وكانت هذه القبلة التاريخية من توابع الزلزال الذى أيقظ أهل البلد على صورة السيد النحال يصافح جمال عبد الناصر فى صدر الصحف، ثم ما كان بعدها من ذهول اعترى فتيان وهو يشاهد حفل زواج دلال بهائمه القديم السيد النحال. ثم ما قيل له عن أن السيد يمتلك هذه الفيلا بما حولها من أرض شاسعة أقاموا فى جزء يسير منها سرادق الحفل الكبير، وبدا على فتيان أنه كان مذهولًا ومتلمظًا وحاسدًا عندما سرق نفسه وراح يدور حول الفيلا، ثم يسير بمحاذاة سورها الطويل بالشارع الغارق فى أضواء الفرح الكهربائية المنسكبة بفُحش.

وانخرط فتيان برغبة منه فى الحملة الانتخابية لابن بلده الذى صافحه جمال عبد الناصر وعززه أنور السادات، وتنازل له عبد الجليل أبو سنة فى مفاجأة كبرى هزت المنطقة، هكذا تقول اللافتات الدعائية، وهكذا نطقت الحقيقة.

وعندما اعتلى ابن النحال مقعده السحرى فى البرلمان راح فتيان يطارده ما بين مكتبه فى الفيلا أو مكتبه بالاتحاد الاشتراكى أو فى البرلمان أو فى منزله الجديد بحى الزمالك الشهير.

كان يترك له أوراقًا تحمل اسمه، ويتلقى مواعيد من السكرتيرات، ثم يأتى فى المواعيد دون أن يجده، والسبب أنه سافر فجأة.. أو خرج مسرعًا ليلحق بتشريفة للرئيس، أو ذهب إلى ماسبيرو لعمل تسجيل عاجل.. أو ذهب للمشاركة فى حفل خيرى مع السيدة الأولى... وما إن عثر عليه حتى ألقى أمامه بكل طموحاته المختبئة:

ـ «لن أنسى ياسيد بك أنك بكلمتين اثنتين زمان فتحت لى طاقة القدر وجعلتنى من أكبر تجار الموبيليا، والآن لا تحرمنى بلمسة من عبقريتك وتدلنى على طريق جديد أنمى فيه أموالى، ويابخت من نفع... واستنفع».

وباغته السيد النحال بسؤال مهم:

ـ «ما قيمة رأس المال الذى تريد استثماره؟»

تنحنح فتيان ولاذ بصمت لم يدم طويلًا، وقال باستحياء: «مائة ألف»

عرف النحال بخبرته أن فتيان يكذب:

ـ «هل هو كل المبلغ الذى تملكه، أم هو المبلغ الذي تنوى استثماره؟... إنه مبلغ بسيط»

تنحنح فتيان مرة أخرى:

ـ «إذن فكر لى فى استثمار ثلاثة أضعافه..»

وبدا الامتعاض على وجه السيد، فتعجب فتيان لذلك وسأله:

ـ «ألا يكفى هذا المبلغ؟»

ـ «طبعًا لا يكفى.. اضرب ألف فدان فى ثلاثمائة جنيه للفدان.. خلاص.. انتهى رأس مالك فى ثمن الأرض.. إذن، كيف ومن أين سنزرعها؟»

هتف فتيان بهلع شديد: ـ «ماذا تقول؟ ألف فدان؟ هل هناك من يشترى ألف فدان؟»

ـ «وثلاثة، وأربعة، وخمسة آلاف يافتيان مم تتعجب؟»

ـ «وحدود الملكية المعروفة فى...»

وقاطعه النحال: «ياعم انس كل هذا الهجص.. أخى أمير يملك خمسمائة فدان فى الخطاطبة ويشرف له على زراعتها صديقك رأفت إبراهيم.. أليس لديك علم بذلك؟.. ياأستاذ فتيان السادات فتح البلد.. أكتوبر قلبت الموازين»

ـ «بالله عليك ياسيد بك.. خذنى على جناحك.. أمير عنده ٥٠٠ فدان؟»

وذهب معه «نحال صغير» ليزور الأرض التى اشتراها من أعراب المنطقة الذين ذهبوا لسمسارهم النحال حتى مكتبه.. أعطوه أوراقًا عليها توقيعاتهم، وكلها لا علاقة لها بشرعية التملك الرسمى إنما بحق التواجد فى عقر دارهم، ولاحظ فتيان أنه لم ير نهرًا أو

ترعة.. إنها صحراء قاحلة.. «كيف سأرويها؟».. قال له النحـل الصـغير الـذى يرافقـه.. «سوف ندق لك الآبار ونأتى لك بالمياه من باطن الأرض»

مسح الفضاء بنظره فلم يلمح برجًا كهربائيًا: «آبار. وكيف ستدور؟» قال لـه النحـال الصغير: «سنأت لك بمولدات عملاقة».. عاد فمسح الأفق بعين قلقة فلم يلمـح بيتًـا أو بشرًا: «مولدات؟.. ومن سيديرها؟».. فقال النحال الصغير:

ـ «سـنأت لـك بمـوظفين.. أسـطوات وعـمال ومهندسـين».. هتـف فتيـان: «ولأيـن سيقيمون» وقبل أن يخبره النحال الصغير بما سوف يقومون به من بناء مستعمرة لأكثر من ثلاثين رجلًا قال له فتيان وهو يلهث: «خذنى للسيد بك.. خذنى له.. لقد تورطت.. إنها حرب وليست زراعة»..

وضحك السيد النحال ملء شدقيه وهو يتأمـل وجـه فتيـان المتقـع، وجذبـه الشـعر ليضع به حكمة مقطرة أمام رجل البهائم والأرانب، فقال له:

ـ «ومن لم يتعلم صعود الجبال، يعش أبـد الـدهر بـين الحفـر».. يافتيـان أتنشـد الثـراء والرفعة وتظن أنك ستحصل عليهما دون مجهود..؟ افـتح أكياسـك وأنفـق عـلى أرضـك وأطيانك يا صاحب الأطيان..»

عرف فتيان أن السيد النحال لم يحقق له مشروعًا قدر ما حفر له حفرة ليـدفن بهـا كـل أمواله، وأن مأساته التى تعلن عن نفسـها أنـه لا يسـتطيع التراجـع، فمـد يديـه متضرعًـا ووجهه مذعور نحوه:

ـ «أكياسى خاوية، وعقلى يفوقها خواء.. فدبرنى من فضلك يا صاحب الفضل»

كان مشغولًا بالرد على تليفون، فأرسل بكلمة عابرة قبل أن يلتقط السماعة:

ـ «سأشاركك بحق النصف»

رقصت الفرحة فى قلبه وهو يتابع حوارًا ملغزًا يدور أمامه لا يسمع منـه إلا حـديث رجلـه الواثق الرزين، ولما انتهى من حديثه ضغط جرس الاستدعاء، فجـاءه أحـد المـوظفين.. وقـف أمامه معتدلًا.. وقبل أن يتلقى منه أمرًا، التفت النحال بسؤال مقتضب إلى صديقه فتيان:

ـ «ماذا قلت؟ .. موافق؟»

«أعاد فتيان تقديم كفيه الضارعتين نحوه: «المشاركة؟ طبعًا.. هذا شرف لى و...»

لم يجعله يكمل حديثه، فقد توجه النحال إلى موظفه بتعليماته:

ـ «الإجراءات التى قمت بها للأستاذ أمير بحصر مساحة المزرعة.. قم بالمطلوب نفسه مع أرض الأستاذ فتيان.. أمامك أسبوع واحد حتى يمكننى مخاطبة البنك»

واتضح لفتيان أن هذا الموظف هو نحال آخر صغير لم يكلفه سوى تحرير توكيل خاص بالشهر العقارى «لاتخاذ اللازم نحو حصر وشراء وتسجيل مساحة الألف فدان محل حيازته بجهة الخطاطبة والتعامل مع كافة الجهات الحكومية من وزارة الزراعة إلى وزارة الرى وتعمير الصحارى والمجتمعات العمرانية الجديدة ووزارة الكهرباء و ....»

وسلمه التوكيل مستفسرًا: «هل هذا كل المطلوب منى؟»

وبهدوء شديد طمأنه الأستاذ «شبل» الموظف النشط الذى أنهى التوكيل فى زمن قياسى:

ـ «سيادة النائب سيطلعك على المطلوب منك فى المساء»

وفى المساء وجد أن المطلوب منه أن يسلم «شبل» عهدة مالية للإنفاق منها على الإجراءات.. «مبدئيًّا عشرون ألف جنيه».. «رسوم؟» «لا.. وأنت الشاطر.. أهم من الرسوم.. لا تسأل كثيرًا..»

ـ «ياشبل خذ الأستاذ ودبر حالك.. ميعادى مع البنك بعد أسبوع.. »

لم يفهم شيئًا، لكنه اكتشف بعد أسبوع واحد أن هذا الشبل لا يمكن إلا أن يكون أسدًا.. فها هو مدير البنك الذى يجلس أمامه يقلب أوراقًا مختومة تشير إلى حيازته لألف فدان مزروعة بشتلات أشجار الفواكه، ولها مصدر للرى بالآبار الارتوازية:

ـ «تمام..»

هكذا هتف المدير وهو يطالع وجه السيد النائب، ثم يكمل: «أين الطلب؟»

هذه المرة السيد النائب هو الذى يطالع وجه السيد فتيان فتيان ويأمره:

ـ «اكتب الآن طلبًا للبنك للحصول على قرض بضمان أرضك.. بكم ياراضى بك؟..»

ـ «لنقل إن الخبير سيقدر الفدان بستة آلاف جنيه.. وسنرهن الفدان بثلاثة آلاف..

خمسون بالمائة يعنى.. إذن، القرض ثلاثة ملايين»

كان «شبل» قد أتى بورقة بيضاء وقلم وراح يملى فتيانًا.. ولا يدرى فتيان.. الآخذ فى الكتابة سبب ذلك الصفير الحاد الذى يمر بأذنيه.. فهل السبب ـ كما قال لنفسه ـ أنها المرة الأولى فى حياته التى يكتب فيها بقلمه كلمة «مليون»؟... أم لآن هذه اللحظة جاءت هكذا فجأة دون انتظار أو دون استعداد نفسى للقائها؟

«الصفير أهون من الموت.. ثلاثة ملايين؟.. هل أنا فى حلم؟»

هكذا قال لنفسه وهو يهز رأسه كحمار ينفض ذبابًا عَلَقَ بأذنيه. وقبل أن يدفعوا أمامه برزمة من الأوراق لتوقيعها طلب كوبًا من الماء فقد جف حلقه، ثم سحب منديلًا ليمسح به على عينيه، فقد غام بصره، وفى يده اهتز القلم للحظات عندما وجد شيكًا بالمديونية ضمن المستندات، حاول الخروج عن هلعه بمداعبة عابرة:

ـ «هل هذا هو الشيك الذى سأسجن بسببه؟»

وانتابه الندم:

«لماذا قلت هذه الجملة العبيطة؟.. الآن سوف يتذكر السيد النحال أنه دخل السجن. بسبب إيصال الأمانة وبيدى أنا فتيان فتيان... «ألم يقل لك النحال، ليتك لا تسأل كثيرًا؟ ربنا يستر..»

وأفاق بعد توقيع الأوراق، واحتساء كوب من الشاى، بالقول الفصل يقوله السيد النحال قبل أن ينصرف:

ـ «ضعوا مليونًا ونصفًا فى حسابى.. وافتحوا حسابًا للأستاذ فتيان ضعوا له فيه مليونًا ونصفًا.. سأتركك هنا يافتيان حتى يجهزوا لك دفتر شيكات.. اصرف مائة وخمسين ألفًا من حسابك وسلمها لراضى بك.. نصيبه.. كل مليون عليه مائة ألف..»

ثم التفت إلى راضى بك:

فى الزيارة القادمة سيكون معى فتيان لإنهاء إجراءات عملية استيراد سيشاركنى فيها». لم يفهم شيئًا.. ثم بدا له الأمر كأنه فهم بعض الأشياء.. ثم راوده بعض الأمل أن يفهم ـ بعد حين ـ كل الأشياء.. ثم راودته رغبة جامحة أن يذهب لينام.. فربما إذا ارتاح

جسده قد يرتاح عقله، فهو حتى الآن بحاجة إلى استيعاب حقيقة أنه الآن يملك رصيدًا بالبنك قدره مليون ونصف المليون إلا قليلًا..

فكيف تمكن من ذلك فى بضع ساعات وهو الذى مضى عليه فى سوق الأرانب والبهائم والربا والموبليا ما يقرب من ربع قرن ولم يقترب من ربع هذا المبلغ.. زمان قال له السيد النحال هازئًا إن:

ـ «المليون عند المليونيرات يسمونه أرنبًا، وأنت أرانبك سهلة الذبح ياحيوان عكس أرانب الوحوش فهى أرانب تَذبح ولا تُذبح»

«صدقتَ يانحال.. ياسليل كلاّف البهائم والبغال.. فأنا الآن أشعر بقوة تجتاح روحى يمكننى بها مواجهة كل هذا العالم.. لأننى والحمد لله صرت أمتلك.. أمتلك.. مليو.. لا.. أرنبًا ونصف أرنب».

* * *

وقبل أن يدخل به السيد النحال فى المشروع التالى لم يحرمه من بضع كلمات قالها سريعًا حول المشروع الأول:

ـ «انس الألف فدان.. خلاص.. هذا المشروع انتهى.. بعد عدة سنوات سوف يستولى البنك عليها ضمانًا لديونه، ولا أحد سيلوم البنك لأنه دفع أمواله فى أرض بائرة، فالخبير سيؤكد أن الأشجار ماتت بفعل الإهمال»

وقبل أن يفتح فتيان فمه سائلًا عن مصير الشيك المأخوذ عليه واصل النحال حديثه:

ـ «غدًا سيتحرك معك محام شاب لعمل بطاقة استيراد وتصدير ـ هذا هو ملعبك الجديد»

ـ «وبإذن الله.. ما الذى سنقوم بتصديره ياسيد بك»

رمقه السيد النحال بغيظ:

ـ «بالله عليك استيقظ معى، ماذا فى بلدك يارجل من إنتاج حتى تصدره؟»

تراجع فتيان سريعًا، وراق له أن يبدد غيظ النحال بمداعبة:

ـ «لا مؤاخذه ياسيادة النائب.. عيّل وغلط.. تحملنى ينوبك ثواب..»

لم يضحك النحال واستمر فى تقديم التفاصيل:

ـ «سنستورد ثلاثة آلاف طن لحوم من إسبانيا.. صفقه سيشاركك فيها أحد أبناء واحد من كبار المسئولين.. شبل.. هل تذكره؟ سيسافر معك.. تفاوض بنفسك للحصول على أفضل سعر.. سيترجم لك ويعرفك على الشركات والمسالخ هناك»

كاد أن يسأله عن الشريك الجديد، وعن طريقة ذبح هذه الذبائح ولكنه آثر السلامة، وفضل السكوت..

لكنه بعد عدة شهور وبعد وصول الصفقة لم يستطع السكوت وهرع إلى النحال هلعًا:

ـ «أغثنى.. سيعدمون الصفقة.. سيخربون بيتى.. الأطباء رفضوا اللحوم»

لم يرد عليه وتفرغ لاتصالاته المتعددة هنا وهناك، وفهم أن التقرير الطبى يشير إلى عدة أشياء أولها أنها لحوم لم تذبح بهائمها على الطريقة الإسلامية، وأن الدم قد تجلط فى أوعيتها الدموية، وأنها غير صالحه للاستهلاك الآدمى..

وفهم فتيان بعد عدة أيام أنه تم التضحية بإعدام خمسمائة طن كحل وسط، لتستقبل مخازن الهيئة العامة للسلع التموينية ألفين وخمسمائة طن استقرت بعد ذلك بالهناء والشفاء فى بطون أصحاب النصيب.. ثم استقرت شيكات الصفقة فى بطن فتيان وشريكه كلٌّ منهما بحق النصف. هكذا تم ترتيب الأمور فى مقر البنك وهم يجلسون فى انتظار «رأفت حشمت بركات».. فتى صغير.. بالكاد ينمو شاربه على استحياء.. ناعم الملمس.. يطفح وجهه بالأدب والحياء.. حتى وهو يثنى الشيك ويسلمه لواحد من موظفين كثر كانوا معه قائلًا: ضعه فى الحساب.

قد يكون فتيان قد فهم من صفقة الألف فدان كيف لشريك لم يدفع فى رأس المال، ولم يذكر اسمه فى العقود أن يحصل على نصف الأرباح، لكنه لم يفهم إلا فيما بعد أن استعراض النفوذ فى إنقاذ الصفقة كلها من الإعدام هو رأس مال صاحب النفوذ، وأن الخمسمائة طن لم تعدم كما أوهموه لكنها ذهبت إلى جيب النحال، فهى مكسبه.. ومع ذلك:

ـ «بارك الله فيما رزق.. العملية «متعشية» والحمد لله»

هكذا قال لنفسه وهو يستعد لصفقة الصنصة التى حدثه عنها السيد النحال بالأمس.